« الموت ولاهذه الابتسامة»

البنات الخمس ومصيرهن ..

الولدان ..

العيد ، الدراسة ، حفلة الخطوبة ومصاريف العلاج ، وأشياء أخرى راحت تتقاتل بالسناكى فى مخيلته ، وتحاصره كأسوار الباستيل العالية ، يده تقبض فى قاع جيب سرواله عدماً سحيقاً، يذفر فى ضيق يكاد يشعل فى العالم الأصم الأبكم الأعمى من حواليه ثورة نفسه ، وغضبتها الرهيبة :

- ألا من نهاية لهذا الشقاء ، مالعمل عليكم اللعنة جميعاً .

قبل أن تهتك غضبته جُدُر قصر الوقار والذى عاش فى كنفه لسنوات طوال ، تساءل إلى نفسه بانزعاج شديد وقد لاح له وجهه المتغضن فى زجاج النافذة أمامه :

- هل بدأ ذوبان كتل الجليد فى القطب الشمالى ؟ ، أبدأت أتساقط كأوراق الشجر فى زمن الخريف الجاف .

نظر من النافذة المطلة على قلب القاهرة الساخن ، أخذ يحل ربطة عنقه ، ويطلق آهة طويلة معاندة ، تكاد لاتخرج ، تخنقه ،

تفزعه خواطره ، وتطارده كصوت وصورة زوجته اللتين تلازمانه دوماً كظله .

طال شجارهما فى المرة الأخيرة حتى ساعة متأخرة من الليل نهرته محذرة بصوت عال جداً أقض سكون السحر فى مضجعه البهيم ، سبابتها كادت تفقأ له عيناً من عينيه المستلقيتين فى فراش اليأس والعجز المقيت :

- أولادك يقولون اليتيم هو من فقد الحظ والجاه والمال فى هذه الحياة الكئيبة .

- إنهم يهذون نفس هذيانك السخيف .

كالشيطانة راحت تصوب إلى قلبه نصل لسانها الحاد :

- كم أنت صغير كالصفر رغم شيبتك ، وقمئ لاتعرف مامعنى أن يبدو الرجل صغيراً أمام امرأة ، وأمام أبنائه .....

هب غاضباً كالعاصفة فى وجهها :

- اخرسى ، يالها من كفن شؤم كلماتك ، ماذا أفعل ، إننى أموت فى اللحظة ألف مرة من أجلكم !.

- زوج أبله زوزو لايموت موتك هذا ، وأولاده يُمَضُّون الصيف فى أجمل منتجعات الغرب الحالمة ،والشتاء فى أحضان ليالى الشرق الدافئة .

جعلت تدنو منه وقد انشق ثوب نومها الأسود عن خريف جامح ونهدين ضامرين ، هامسة تلفه بشفتيها الحمراوين كالنبيذ المعتق ، تحاول أن تكون ساحرة ملساء :

- أنت الآن تجلس على ذات مقعده ، وكل مافى الأمر ابتسامة وكلمة طيبة ، أو اصمت تماماً إن شئت ، بعدها سوف نرى الحياة على وجهها الآخر الجميل .

أفاق على يد اتخذت من عارضة منكبه مسنداً ، نظر نحو صاحبها هلعاً وفى عينيه أطلال نظرة شاردة :

- أنتَ ؟!.

ابتسم له الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول بعينين مفتوحتين عن آخرهما :

- صباح الخير ، أخبار مزاج السيادة عال ؟.

اغتصبته الدهشة ، نظر نحو المقعد ، ثم نحو زوجته والأبناء والدنيا بأسرها ، على وجهه تراقص الغضب والابتسام معاً ،

بـدا كالمخنـوق ، الشـيطان يفعـل أشـياء مجنونـة برءوسـنا عندمـا نسـلمه مفتـاح الحكمـة فـى الأوقـات العصيبـة ، سـار بخطـوات بطيئـة نحـو مقعـده الوثيـر وراء المكتـب اليوتيـب الخشـبى الفخيـم ، جلـس شـارداً ومتجهمـاً كوجـه الدبابـة للحظـات ، أخـرج القداحـة الذهبيـة الرخيصـة المتآكلـة الأطـراف مـن وفـاض جاكتتـه الصيفيـة القديمـة ، أمسـك بالورقـة تلـو الورقـة فـى الملـف الأسـود الكبيـر ، وهـو يغمغـم قائـلاً فـى عبـوس :

- النيـران لاتشبـع من أمثالكم .

صرخ الرجل ، كالمجنون راح يقفز ويثب كقرد إفريقى متوحش:

- ماذا تفعل أيها الأحمق .

غمره بنظرة ساخرة هازئة ، ثم قال بذات العبوس :

- منظـرك يسـتفزنى لكـى أضحـك وأضحـك ، ولكنـى لـن ابتسـم أبـداً حتـى المـوت .

الدخـان المتصاعـد مـن احتـراق الملـف الأسـود الكبيـر ، خيـم علـى المدينـة التـى كانـت تتـوق لنومـة هادئـة منـذ زمـن بعيـد .

●●●